10

مواجهات عبر القارات بين كاسترو، كنيدي، وخروتشوف

شهد العالم كوارث متشابكة في خلال فترة الستينيات من القرن البائد حيث تورطت القوتان العظمتان والتي كان يقود إحداهما شاب صغير السن والأخر عجوز محنَّك: جاك كنيدي ونيكيتا خروشيف. هما "نمران شابان" كلاهما يختبر قدراته الجديدة. وانتقل المشهد الدبلوماسي إلى حيث لم يكن مسبقًا بين هافانا وواشنطن/ بون، وبرلين، وموسكو.

كانا يتمتعان بالخبرة ولكن أعجزهما إلى حدٍ كبير موقف المتفرج الذي اتخذه كلٍ من شارل دي جول وهارلود ماكميلان وكان هذا حال العالم كما هو الآن.

الصدام الكوبي: كاسترو وكينيدي

كاسترو (ولد عام 1927) دخل مدينة هافانا عاصمة كوبا في يناير من عام 1959. وفر فلجنشيو باتستا الذي حكم الجزيرة لعقود في النهاية إلى البرتغال وأسبانيا. كما اتهم جون كينيدي في أثناء حملته الانتخابية في أمريكا عام 1960 باتستا الذي تتلمذ منذ زمن طويل على يد الكويكرز الأمريكان، بتهمة قتل بضعة وعشرون ألف من الكوبيين في مدة سبع سنوات ففي فترة ولايته المضطربة أصبحت كوبا دولة عسكرية بالكامل. أما عن باتيستا فلم يكن رحيله حدثًا يهز العالم.

انحدر كاسترو من أصول جبلية حيث استقرت جماعته منذ سنوات عديدة وقد تحول لتصبح عملياتهم مستقيمة وكان هناك اقتراح مبدأي أن تعبر رسالة كوبا القارات، ولم تكن الولايات المتحدة ببعيدة بل قريبة جدًا حيث يبعد ساحل فلوريدا بحوالي 90 ميل. واستعان بخليج جوانتانمو كقاعدة حربية عام 1903، ومنذ ذلك الحين اعتبر ملكية مهيمنة لازالت كائنة في الكاريبي. ولم تكن فكرة هروب كوبا من الالتحام بالولايات المتحدة الأمريكية حاضرة بالأذهان رغم أن التنسيق كان ممكنًا. وفي حقيقة الأمر كانت المبادرة المبدئية لشاب من الطبقة الوسطى دارس لليسوعية ويُسمى كاسترو واستلم فيدل من الصحافة معامله النجم وأعلنها في زيارته للولايات المتحدة الأمريكية عام 1959، وعندما قابلة الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية، نكسون أعتقد انه ساذج من الناحية السياسية. بيد أنه لم يكن يعتقد أن كاسترو شيوعيًا على الرغم من سهولة التلاعب به من قبلهم.

وإذا كان هناك فترة يطلق عليها شعر عسل فهي فترة قصيرة، حيث كان ايزنهاور يفكر بحذر في السماح لنيكسون بمقابلة كاسترو ، فقد كان جليًا بالفعل أن النظام الجديد قد يؤذي مصالح أمريكا. كانت الصور التقليدية ظاهرة من الناحيتين. رفض وجود "يانكيدوك" النابع من قلب النظام ولذا كان الوقت المناسب للتحرك سريعًا لمصادرة الأراضي الخاصة، والتي كان بعضها ينتمي للولايات المتحدة الأمريكية، مقابل تعويض ضئيل.

كانت المحاكمات وأحكام الإعدام بداية البرنامج الشامل والموجة بحسم للمركز والذي يمكن أن يصنع مواطن ومواطنة يحملون الجنسية الكوبية ويحررون الجزيرة من فكرة كونها مستعمرة، ذلك المعتقد الموروث. غير أن البرلمانات لم تجلب سوى الفساد والتأخر ولم يكن كاسترو بحاجة إليهم بل كل ما كان يحتاجه هو خطة التنمية ولذا استعان بشخصيته الجذابة حتى النهاية، وطبيعة الدقة في عقيدته في هذه المرحلة بالإضافة إلى أنه رجل يساري ومن الصعب إسقاطه. بيد أن رسالته كانت مختلطة مثل الشعب الكوبي ويتخللها إيقاع موسيقي، أساسا من العالم الأسباني والأفريقي، وعلى سبيل المثال كان

الرئيس السابق باتيستا يبدو منحدرًا من أصول أوروبية، وأفريقية، وصينية والهنود الحُمر. وفي هذه المرحلة كان ثلاثة أرباع الكوبيين من البيض أما الباقي فكانوا تقريبًا مناصفة بين السود وذوي العرق المختلط. بيد أن الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ظلت لفترة طويلة ميزه حتى أصبحت الآن تحدث بصورة متزايدة غالبًا من البيض ورجال الأعمال والمهن من الصفوة، حيث دعمتها الثورة وقضت على أي معارضة لها. وادعى الكوبيون المنفيون أن الثورة لم تكن شعبية ولا يمكن الإطاحة بها بنفس السهولة التي أنجزت بها حيث لم يكن هناك تقصير من السياسيين الكوبيين في فلوريدا واللذين كانوا يعدون أنفسهم للحكم. وكان من المتوقع أن يلجأ كاسترو إلى الدعم من قارة أخرى.

وفي فبراير عام 1960 أجريت اتفاقية تجارية مع الاتحاد السوفيتي تضمنت البترول الروسي، بينما رفضت معامل تكرير البترول الخاصة بكل من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة بكوبا تكرير هذا البترول، بل أُخِذ لصالحهم.

استدعى، تشي جيفارا، القائد العسكري لكاسترو والمنحدر من أصول أرجنتينية ليقرع طبول الدعم. وجاءت في مايو عام 1960 اتفاقية سياسية بين كاسترو والاتحاد السوفيتي، غير أن الولايات المتحدة الأمريكية ارتكبت خطأ بارتياحها تجاه هذا الاتفاق اعتقادًا منها أن الخطوة لن تحظى بشعبية كوبية. ولكن العكس هو ما حدث ونجا النظام، وهو ما يعني أن "الجوار" قد أُعلِن دولة ضمن الاتحاد السوفيتي. وعانق نيكيتا خروتشوف كاستروا عناقًا شديدًا داخل المجلس البرلماني البريطاني في سبتمبر عام 1960،وهو ليس بالأمر الهين. وبدأ الاتحاد السوفيتي والدول التابعة له في شراء محاصيل السكر الكوبي، بينما توقفت أمريكا عن أخذ حصتها المعتادة. كما بارك وجود جيفارا العظيم في موسكو في الاحتفال الثانوي بالثورة البولشوفية، وبدأت القوات السوفيتية بالوصول إلى كوبا وانهزمت الامبريالية في العالم الثالث.

وجاء جون كنيدي، ولد عام 1917، أصغر مرشح رئاسي للولايات المتحدة على الإطلاق، وكان هو الأقرب للفوز بالانتخابات الرئاسية وأقسم للمنصب عام 1961. وعلى الرُغم من ذلك كان كاسترو يكبره بعشر سنوات. كما كان هذا الشباب جزءً من

رسالة كل منهم إلى عالمة الخاص فقد خدم كنيدي في الحرب ببسالة وخدم على الطوربيد في جنوب الباسيفيكي إن لم تكن رتبته عالية. وكان كاثوليكي، وكان يومأ عاطفيًا تجاه الايرلنديين القدامى، قضى فترته في لندن عام 1939 كسكرتير لأبيه. سفير الولايات المتحدة (شخص منعزل وهادئ)، جعل منه عاشقًا لإنجلترا. كما زار كنيدي في هذه الفترة كلا من موسكو وبرلين. كان نتاج 23 عام.

نشركنيدي في بداية عام 1940 كتابًا قصيرًا وحظي بمساعدة بسيطة من صديق، يرمي فيه إلى شرح أسباب ركود انجلترا، وكان قد فكر كثيرًا بشأن الديمقراطية والديكتاتورية بيد أن الأب كان يؤمن بأن الولايات المتحدة لا يجب أن تخوض حربًا إلا إذا هُجمت، بينما آمن الابن بسهولة هذا المعتقد. ومع مرور عقدين منذ بيرل هاربور ساد الإحساس باحتمالية ركود أمريكا مرة أخرى.

تحدث كنيدي عن "حدود جديدة" وأعلن أن الاختيار في الانتخابات ليس بين رجلين أو حزبين بل هو بين نهضة الوطن وركود الوطن. وكانت لهذه الكلمات صدا بين التحدي والمسؤولية في تاريخ الحضارات صاغها المؤرخ البريطاني آرنولد توينبي ثم أصبحت شائعة في الولايات المتحدة الأمريكية. وخيم على الدولة شعور بأن ظروف ما قبل الحرب حيث نجحت أمريكا في عرض نفسها قد تغيرت. وفي لندن عام 1939 أصبحت بريطانيا أضعف من نظرة مقترحة لها على الخريطة، أما واشنطن عام 1961 إمبراطورية العالم الأمريكي قد لا تكون هادئة كما بدت. اكتملت الانتخابات الرئاسية بالخارج واحتلت كوبا مكانة عالية.

كانت لهجة كنيدي الحادة بشأن نظام باتيستا قد ظهرت واضحة،غير أن استبدال هذا النظام لم يكن "كوبا الديمقراطية" بحسب فهم كنيدي للديمقراطية. بل سمح لنفسه أن يقتنع برأي الاستخبارات الأمريكية بأن اقتحام كوبا بقوة صغيرة من المستبعدين الكوبيين مع دعم من الطيارين الكوبيين يلقون بقنابل أمريكية سيؤدي إلى انقلاب على حكم كاسترو. وكانت هذه القوة بمثابة يد مساعدة إلا أن لاعتداء الذي وقع على غزو خليج الخنازير في أبريل من عام 1961 كان فاشلًا. ولم يكن أمام كنيدي خيارًا سوى الاعتراف

بمسؤوليته المباشرة. ولم يكن الأمر يحتاج إقناع من قبل الخبراء لكسب الدعم. بيد أن قوات كاسترو قد تعاملت مع الغزو بكفاءة، ولم تكتمل مهمة الإدارة الجديدة وظهرت قوة عظيمة متخاذلة. وفي عيون شعب أمريكا اللاتينية أثبتت الحملة أن الولايات المتحدة لا يمكنها التخلي عن عاداتها القديمة، حيث أُهين الرئيس شخصيًا. وفي الحال أعلن كاسترو كوبا بوصفها دولة اشتراكية ، كان من المتوقع أن تتدفق الانتخابات إلا أن سادت بعض الاضطرابات العلاقة بين مؤيدي كاسترو والجماعات القديمة داخل كوبا والتي لم تختفي تمامًا. وليس هذا فحسب بل كان أسلوب كاسترو في القيادة لم يفي بتوقعات الكريملين أبدًا. وعلى الرُغم من ذلك كانت الشراكة مع موسكو واضحة ، وبالطبع كان لهذا كله دلالته الدولية أكثر من كونه نصرًا محليًا حققه دايفيد أمام جوليث. وهنا كانت تكمن مشكلة برلين.

برلين تحت مراقبة خروشوف وكنيدي

كان ذلك في فينا قلب أوروبا القديمة وفي يونيه عام 1961 عندما عقد كنيدي وخروشوف اجتماعهما الأول. وكانت القوى الأوربية قبل قرن ونصف قد حددت هيكلة القارة، بحيث أصبحت فينا مكانًا مناسبًا للقاءات الخاصة ببناء العالم . سافر كنيدي وزوجته الفرنسية إلى باريس أولًا حيث جاءت المأدبة الفرنسية المتألقة في قصر فرساي لتذكر الأمريكيين بالحضارة الفرنسية، حيث كان الرئيس شارل دي جول مجاملًا لكنه التزم بحفظ مكانة فرنسا بين دول العالم. وكان يرى أن روسيا تخادع برلين. وجاءت المواجهات عبر القارات بين : كاسترو، كنيدي، وخروشوف

"للتعرف عليك" بدا وكأنه المطلب اليومي في ذلك العام. ففي عام 1959 كان نيكسون في موسكو وقضى خرشوف عشرة أيام في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث قضى الأخير رحلة عائلية ولا يمكن الحسم بأن الرجل قد فهم العالم الآخر فهمًا عميقًا مناسبًا لهذه المواقف. وعلى الرغم من ذلك كانت الصورة التي يقدمها رجال الدولة تهم بشدة الرأي العام العالمي. وكان كنيدي واثقًا في شخصيته حتى أنه لم يكن بحاجة إلى أن يحمل أي أوروبي حقائبه في مواجهة منه لموسكو. كما تأكد في اجتماع قمة من هذا النوع أن

العالم حقًا ثنائي القطبين.

وجد الرئيس أن مستوى الحوار الروسي كان مستفزًا استفزازًا مباشرًا، لم يكن هناك التقاء موضوعي للعقول في أي من الموضوعات التي نوقشت. حيث وضع خورتشوف شروطًا وعلى الاتحاد السوفيتي إمضاء اتفاقية سلام منفصلة مع جمهورية ألمانيا الديمقراطية التي ستتحكم بدورها في الدخول إلى برلين، في حال عدم وجود اتفاقية سلام بين الولايتان الألمانيتان بحلول نهاية العام. بيد أنه ظل ولأعوام عديدة يسعى لإنهاء احتلال الأربعة قوى لمدينة برلين، ثم جاءت الضربة للشاب لتكون بمثابة الضربة القوية وإن كانت غير مميتة وهي انضمام كوبا وبرلين. وسخر خوروتشوف من أمر كوبا، وعلم كنيدي أن خروتشوف قد انتصر عليه ويجب أن يظهر بعض القوة ولكن كيف وأين؟ قد يكون وصول أمريكي إلى سطح القمر إشارة لحيوية أمريكية. واستدعى كنيدي ماكميلان إلى منزله وكانت النصيحة أن يرد على الاتحاد السوفيتي بحذر. وما لبث أن تلقى السفير البريطاني في موسكو تحذيرًا من خروتشوف بضربة نووية إذا ما حاول الغرب شق طريقه بقوة نحو برلين.

بيد أن كنيدي توصل لنتيجة ما، في خطاب إعلامي وجهه في 27 يوليو عام 1961 أعلن كنيدي أن لقوى الغرب الحق في التواجد داخل المدينة وأكد على ضرورة حرية الحكم وحرية مواطنيها. وكان مرامه برلين الغربية. وجرى التوصل إلى نتيجة في 27 من يوليو عام 1961 أعلن كنيدي في خطاب مذاع مكررًا أحقية تواجد قوى الغرب في المدينة، وشدد على ضرورة حرية الولوج ومن ثَم حرية مواطنيها، ولم يكن المقصد إلا برلين الغربية. وقابلت القيادة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية الأمر بزيادة عدد المواطنين الزاحفين إلى الغرب رغبة منه في قطع طريق الهروب. ومازال خروتشوف آملًا في إقصاء قوى الغرب وعلى الرغم من ذلك لم يبدي أي رد فعل. وفي منتصف شهر أغسطس وبكل سرية ومهارة نصب حاجز من الأسلاك الشائكة، وسرعان ما ظهر جليًا أن القوى الغربية لن تتدخل حيث صنع الحاجز بمتانة. حيث سنح حاجز برلين "المصنوع لتأمين السلام" شعب ألمانيا الغربية، وهؤلاء الألمان اللذين حاولوا عبوره في المستقبل خاطروا بحياتهم.

وتصرف شعب ألمانيا الغربية بمشهد يملؤه العجز (منعت ذكريات أحداث عام 1953 أي رد فعل مثير)

أما أدينور العجوز الذي التزم الصمت بعد انتهاء معركة حملته الانتخابية، ردد بعض الألمان بكثافة أنه لم يذهب إلى برلين الغربية لمدة عشرة أيام حتى انتهى بناء الحاجز الشائك. وأشتد الموقف تأزمًا.

وجاءت عودة لوسيوس دوبنيون كلاي والمعروف عالميًا بوصفة الجنرال الأمريكي الذي أنقذ المدينة عام 1948 بمثابة تعقيدًا للعبة القط والفأر والتي ولدت نتيجة لتصاعد الموقف في الشهور المتعاقبة حيث أصرت قوى الغرب تحت قيادة أمريكية على دخولهم برلين الغربية وعلى التعامل فقط مع الروسيين في تنفيذ هذا الأمر، بينما قيادة ألمانيا الديمقراطية وعاصمتها في ذلك الوقت برلين الغربية سعت باستمرار لتفويض الأربع قوى المسيطرين على المدينة . وكانت نقطة تفتيش شارلي وهي نقطة العبور دائمًا متصدرة عناوين الصحافة. وفي أكتوبر عندما واجهت دبابات الولايات المتحدة الأمريكية تلك الخاصة بالاتحاد السوفيتي بالذخيرة الحية بدا الوصول لمرحلة كشف الأوراق بل ظهر وكأن الأمر قد انتهى.

"القنوات الخلفية" لا جديد في المشهد. مازال الحاجز قائمًا بل وأصبح دليلًا واضحًا على تقسيم أوروبا. بل إنه حدد النهاية وأصبحت الجهود المبذولة لتحقيق وحدة ألمانيا جهودًا متقطعة. أما الجمهورية الفيدرالية فقد أصبحت راسخة تمامًا في الغرب.

ولم ينجح وزير الخارجية القادم جيرهارد شرودر، الذي اتخذ خطوات تجاه التعاون الأطلسي وفضل دخول بريطانيا ضمن المجموعة الاقتصادية الأوروبية، في تحقيق معادلة بين التثبيت والتبعية بالقدر الذي حققه شارل دي جول. كما لم يلق نفس الدلالة الأوروبية في المعاهدة الفرنسية الألمانية في يناير 1963 كما فعلت باريس، بينما اتخذت جمهورية ألمانيا الديمقراطية من جانبها خطوات حيوية لبناء هويتها الخاصة. وتحت حماية "الجدار الواقي ضد الفاشية"، ومع التحكم الحازم لقوات العمل التي لا يمكنها الهرب تمكنت من خلق مجتمع اشتراكي. وطبقا لشروط الدعاية العالمية لم تكن الاشتراكية المعتمدة على وجود

سجن لإظهار طوحها أمرًا مقبولًا، ولم تفشل الولايات المتحدة في إظهار هذا الأمر، ومع ذلك، في عام 1962 وعلى الرغم من عدم إعلان هذا للعامة إلى أن الجدار كان حلًا للقوتان العُظمتان، سواء كان مؤقتًا أو دائمًا، لمشكلة شائكة بل وخطيرة في بعض الأحيان. وربما تمنى خروتشوف الثناء على القوى الغربية بعيدا عن برلين في بعض المراحل (ربما في خاطره عند صياغة سياسته تجاه كوبا).

كوبا: تومض على حافة الأزمة

وفي هذه الأثناء استمرت الولايات المتحدة الأمريكية في الضغط على هافانا من خلال الأزمة المتفاقمة في برلين. وفي خلال السنوات القليلة التالية بقي هناك تماثلًا محددًا بين الأوضاع في كل من كوبا وبرلين، حيث تعلقت أقدارهما بوصفها "حالة اختبار" في الصراع العالمي الذي أخذ يتفاقم. بيد أن الشيوعية الكوبية ظلت كما كانت دائمًا دخيلًا غريبًا على "العالم الأمريكي"، أما تواجد القوى الغربية في برلين فكان تدخلًا غريبًا في "نص الكرة السوفيتي". وكانت الولايات المتحدة الأمريكية قادرة على إقناع مؤسسات الدولة الأمريكية على استبعاد كوبا من عضويتها في فبراير 1962، ومن ثَم تنفيذ الحظر الاقتصادي ولم يكن أمر المناورات البرمائية الأمريكية الذي وقعت في منطقة الكاريبي سرًا. كما كان هناك غزوًا أخرًا قد يكون سببًا في الإطاحة بالنظام الشيوعي ربما في أكتوبر1962. ولم يستبعد اغتيال كاسترو، فهل هناك رمزية أجمل من الوفاة بسبب سيجار (هافانا) مسموم؟ ومن المفاجئات القوية في تلك الظروف أن كاسترو كان يسعى لتحقيق معاهدة دفاع رسمية مع الاتحاد السوفيتي. غير أن خروتشوف كان يفكر في خطة مساعدة أكثر مراوغةً. ففي الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر والأولى من أكتوبر عام 1962 أبحرت السفن السوفيتية إلى كوبا محملة بالصواريخ متوسطة المدى ذات الرؤوس النووية حيث كانت القواعد الخاصة بتلك الصواريخ تحت الإنشاء على الجزيرة، على أن يتحكم الاتحاد السوفيتي في الأمر برمته بحماية القوات السوفيتية، واتسمت الخطوة بالجرأة في إطار بادرة حقيقية من التضامن بل ربما هي الأهم للتأكيد على وضع الاتحاد السوفيتي: لم يكن العالم مقسم إلى مناطق. بيد أن في ابريل التالي انتشرت الصواريخ الأمريكية، عطارد، في تركيا

أي في "الفناء الخلفي" للإتحاد السوفيتي. ومرت فترة متوترة بالتهديدات تبعتها فترة زمنية أخرى من مكافحة التهديدات في أواخر شهر أكتوبر. وأعلن كنيدي في خطاب مذاع للعامة أن الولايات المتحدة الأمريكية ستفرض حصارًا لمنع تسليم الصواريخ بينما أعلن أن أفعال خروتشوف تمثل تهديدا للسلام العالمي، واستسلم خروتشوف في النهاية لسحب الأسلحة وهو الأمر الذي أُعتُبر مهينًا، كما وافق الأمريكيون بعدم غزو كوبا وأيضا على انسحاب الصواريخ من تركيا رغم خصوصية الأمر. وعندما بلغت الأزمة ذروتها ظهر البعض، وبالأخص في أوروبا، اللذين اعتقدوا أن نهاية الحرب أوشكت بيد أنه لم يحدث وسرعان ما مرت فترة خوف حادة ولكن استمر الجدال بشأن الأسلحة النووية. رأى البعض أنها مضيعة للمال لكن القوتان العظمتان رغم أنهما "يحدقان في الهاوية" إلا أنهما مازالا يرغبان في توسيع قدرات صواريخهم واستمرا في الدفاع عن تلك الصواريخ. كما بدا الإنفاق غير منتهي، ومن ناحية أخرى بالموافقة على الاتصال المباشر بين البيت الأبيض والكرملن على الخط الساخن لاحظ الطرفان أن قنوات الاتصال يجب أن تكون فعالة وسريعة. وبالمثل، أعترف كلا الطرفان بضرورة البحث المخابراتي عن الأخر بطريقة أو بأخرى.

وأدت سياسة حافة الهاوية في الأزمة بين برلين وكوبا إلى بعض الأحكام المختلفة، حيث تقدم كنيدي الدبلوماسي المنتصر بينما أجبر خروتشوف صاحب المحاولة الجريئة "خارج المنطقة" على الانسحاب ولم ينال سوى وعد أمريكي مؤكد بعدم غزو كوبا وهو ما كان على أي حال ليس بالأمر القريب.

أما في حالة برلين فلم تكن الصورة واضحة تمامًا، وكانت القوى الغربية بالفعل مازالت تقف حازمة في المدينة لكنها لم تقدم جديدا تجاه هذا الحاجز. ورغم وقوف كنيدي بجانب برلين إلا أنه كان يرى أن الموقف بأكمله يعد ذلة تاريخية مؤسفة لن يبدأ بسببها حربًا عالمية ثالثة. ولم يكن حتى يونيو 1963 عندما انخفضت حدة التصعيد الدبلوماسي عندما حضر إلى برلين قائلًا "أنا برليني"، وأعلن أن الكثيرون في العالم لا يفهمون أو يدعون أنهم لا يفهمون ماهية المشكلة بين العالم الحر والعالم الشيوعي، وهؤلاء عليهم

الإتيان إلى برلين. بيد أن كوبا مازالت هناك وعلى العالم أن يأتي إلى مدينة هافانا. وأستمر خروتشوف في إصراره على ضرورة دفاع الاتحاد السوفيتي عن كوبا. وفي ابريل من نفس العام رحب خروتشوف بكاسترو في الميدان الأحمر وأطلق على كوبا منارة الأمل لجميع شعوب أمريكا اللاتينية، مع ذلك فإن السياسة الداخلية للجزيرة استمرت في إظهار أن أفعال كاسترو ونمطه لا تجعله الرجل السوفيتي الأرثوذوكسي. لم تكن المسافة التي تبعدها كوبا عن الاتحاد السوفيتي مجرد كلمات. وبدا الأمر وكأن لم يكن لكاسترو أي اختيار سوى السعي للدعم السوفيتي بقدر استطاعته فقد تكون هي الورقة الرابحة (الأمر الذي يرحب به مؤيدو الورقة الرابحة في أوروبا الغربية ومكان أخر)

المتفرجين: حبس الأنفاس والاكتئاب

قد يستطيع "العالم الخارجي" تقديم أكثر من مجرد النظر على تلك الأزمة الأوروبية الأمريكية المعقدة، وتقابلت دول عدم الانحياز لأول مرة في المؤتمر المنعقد في بلجراد سبتمبر 1961، وكانت الاجتماعات التحضيرية تُقام بالقاهرة قبل عام قد عزمت على تحديد المعايير المناسبة للدول المنضمة إليها. ويتعين على تلك الدول أن تلتزم أو تبتعد بموجب المبادئ الخاصة بعدم الانحياز والتعايش، والمبدأ التالي يمنع أي استلزام من قبل أي قوات دفاع مجمعة أو تحالف ثنائي من شأنه توريط القوى العظمى، ولا يجب أن تمنح القواعد الحربية لهذه القوى وكان من البديهي أن تؤيد دول عدم الانحياز التحرير من الاستعمار.

على الأقل بعض هذه المبادئ تتطلب مجالا للتفسير، حيث أن تكوين مؤتمر بلجراد يعني الحاجة إلى "المرونة". وكان في الشروط الخارجية 11 دولة افريقية، و6 دول من جنوب آسيا أو جنوب غرب آسيا، و6 دول من الشرق الأوسط وواحدة من دول الكاريبي (كوبا) ودولة أوروبية (يوغوسلافيا). ثلاث دول من أمريكا اللاتينية (بوليفيا، والبرازيل، والاكوادور) جميعهم حضروا كمراقبين.فيما أظهر التدقيق في الأمر أن ادعاء الحيادية بين القوى العظمى وبين الرأسمالية والشيوعية لم تكن دائمًا دليلًا، بل في الغالب كل الدول في مرحلة ما كانت مستعمرات لدول غرب أوروبا، وبعضهم كان يتمتع

بوجود وطني سابق للاستعمار بينما انشغلت بعض الدول بمولدها، وأخرى كانت دولًا كبيرةً بالمفهوم العالمي وغيرها لم تكن كذلك. لم يتم اختيار المبعوثون اللذين قاموا بتسليم الرسائل الختامية إلى واشنطن وموسكو من قبرص ونيبال واليمن.

وقد أرسل كل من سوكارنو إلى الولايات المتحدة الأمريكية ونهرو ونكروما إلى الاتحاد السوفيتي محذرين من أخطار الحرب النووية ويحثون إلى التعايش السلمي. وهذا النوع من دول عدم الانحياز لا تجد تركيزًا واضحًا عليها، فمازالت حلقة أفروأسيوية ولكن قد لا يكون هذا مركزها الديناميكي.

غير أن جميع دول المنظمة الأفروآسيوية في انتظار رسالة متعلقة بالاستعمار لكن هذا الإجماع لا يمكنه إخفاء الخلافات الإقليمية والقارية بينهم. فالمنظمة الأسيوية في بلجراد التي لا تضم باكستان والصين واليابان ولكن لا نذكر إلا تلك الدول الدائمين الغياب وليس لهم وزنًا حقيقيًا. وكان هناك دول أوروبية أكثر حيادية من بعض الدول المشاركة في منظمة عدم الانحياز ولكنهم اختاروا عدم المشاركة. غير أن دول أمريكا اللاتينية التي حضرت لم يكونوا سوى مراقبين وحملوا الرسائل أيضًا. بالإضافة إلى مزاعم الدول تأسيس التضامن على أساس السلبيات وعلى أساس ما هم ضده وليس ما اتفقوا عليه. والتعليقات مستمرة على هذا النوع من"العالم" المتنافر، وعلى الرغم من ذلك فمجموعة عدم الانحياز أسست تأكيدًا ليزداد جاذبية مفاده أن العالم ما هو أكثر من الثنائية القطبية. كان هناك أمرًا واحدًا واضحًا وهو أن في أثناء هذه "الكارثة العالمية" المستمرة والملتحمة عام 1961-63 لم يكن على الساحة سوى لاعبان هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي. أما بريطانيا وفرنسا فكانا بالكاد أكثر تأثيرًا من "عالم عدم الانحياز".

لم يصدر سوى القليل المؤثر في أفعال الولايات المتحدة الأمريكية من قبل لندن، فلم يكن ماكميلان، رئيس وزراء بريطانيا سوى بينما كان الاتحاد السوفيتي وبرلين مهتمين، حيث عقد وارسو قبيل تصعيد مشكلة حاجز برلين ولم يقدم الكرملين أي معلومات مسبقة لشركائهم. وعلى الجانب الغربي كان الموقف الرسمي للقوى الثلاث في برلين وهو الأمر الذي تطلب مشورة بينهم، لذلك كان ما تقرره الولايات المتحدة الأمريكية هو ما

بهم. بينما جهز شارل ديجول قواته وتحدث عن كونه حازمًا ضد روسيا إلا أنه في حقيقة الأمر لن يخاطر بخوض حرب. ارتبطت كل من بريطانيا وفرنسا ببعض واهتمت كل منهما بما وصلت إليه الأخرى من مكانة عالميه وما ترمي إليه، وكان كل من ديجول وماكميلان لديهما الخبرة الطويلة على القيادة، وقد .. ولم يرسل الرئيس الفرنسي أي رسائل مختلطة.

تحدث شارل ديجول عن القوات العظيمة، وكانت الأحداث المؤسفة في هذه المناسبة في بعض الأحيان يراها المتابعون للأحداث قديمة جدًا تعطي انطباعًا بأن فرنسا مازالت دولة استثنائية. كما أن العالم الذي وجدت فرنسا نفسها به لم يكن ليتناسب معها. ومازال دي جول لا يروق له سيادية الأنجلوساكسون على الغرب منذ الحرب العالمية الثانية

وكذا تلك الثنائية القطبية الموجودة بالعالم ككل، والتالي أمثلة توضع بعض محاولاته للتغير؛ اقترح شارل دي جول على الرئيس ايزنهاور في سبتمبر عام 1958،في داخل حلف الناتو، أن تتخذ كل من فرنسا وأمريكا قرارات بشأن استخدام القوات النووية، ولم يوافق ايزنهاور. وما كان من دي جول إلا أن سحب في الربيع التالي للحدث قوات الأسطول الفرنسي من الناتو. غير أنه قد اتخذ خطوات ابعد في فبراير 1966 حيث انسحبت فرنسا من الهيكل القيادى للناتو وطالبت الولايات المتحدة الأمريكية بسحب قواعدها وقواتها من الأراضي الفرنسية.

بيد أنه قد استعاد شخصية الجيش الفرنسي والقوات البحرية والجوية المتسمة بتمام الوطنية، على الرغم من عدم ترك فرنسا للتحالف رسميًا دفعةً واحدةً، بل كان "خضوعًا" حتى تستثنى فرنسا. ولم تتجاهل تحفظات دي جول ضد أمريكا بالكامل ديون فرنسا للعالم الأمريكي. بينما حث المثقفون على التحفظ تجاه "عالم فرنسا الفضائي". أما هؤلاء الأوصياء على الثقافة الفرنسية فقد دافعوا بضراوة عن اللغة وحالوا دون تسلل المفردات الانجلو ساكسونية وبعض الاختراقات الثقافية غير المستساغة عبر المحيط الأطلسي.

قيم رئيس الوزراء البريطاني، ماكميلان، كينيدي تقييمًا متشائمًا وإن كان لطيفًا، كان

يبلغ من العمر اثنان وستون عندما أصبح رئيسًا للوزراء عام 1957 وكان يرى أوروبا بعين الحارس إبان الحرب العالمية الأولى. وشاع عنه عدم إعجابه للألمان، وشغل منصب لفترة قصيرة في وزارة المستعمرات (وزارة الكومنولث حاليًا) إبان الحرب العالمية الثانية، ثم أعترف بعد ذلك أن معلوماته عن المستعمرات محدودة جدًا، وأصبح بعد ذلك وزير الدولة البريطانية في الجزائر وارتبط بشؤون التحالفات السياسية وكانت بمثابة العودة التي امتدت إلى منطقة شرق المتوسط.

وارتبط ببعض التحركات التي شنها تشرشل بعد الحرب عام 1947، حيث حضر اجتماعات البرلمانيون في المجلس المنشأ حديثًا واعتبر أن خطة شومان نقطة تحول رئيسة في التاريخ الأوروبي. ومر في حزب المحافظين بوصفه أوربي. وعمل وزيرًا للخارجية عام 1955 كما ارتاب من اجتماعات "الستة" ولم يشارك في تلك الاجتماعات، ولم يروقه مسلكهم. وأعلن أن المسئوليات البريطانية والمؤسسات استبعدت المشاركة البريطانية في السوق المشتركة. ولم تسبب محاولات توحيد أوروبا الغربية إلا الانقسام. بيد أن أولويات ماكميلان في منصبه كرئيسًا للوزراء لم تكن تصعيدًا لنوع من أنواع "المسار الجديد" الأوروبي بل لإصلاح العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية واستعادة "العلاقة الخاصة"، وكان الأمر مثيرًا للحنق البريطاني أن تظهر بريطانيا أمام العالم وكأنها غارقة.

لم تكن تلك هي اللحظة المناسبة للسماح بتفاقم الاستياء، فقد كانت والدة ماكميلان أمريكية وعمل مع الأمريكان في شمال أفريقيا، كما احتاجت أوروبا الغربية للولايات المتحدة الأمريكية. وفي يومًا ما أخبره أحد أسلافه أنهم لن يصبحوا أوربيون أبدًا. فلم يكن ماكميلان متواصلًا. بيد أن أسلافه وخبراته قالوا له أن المهمة البريطانية هي بناء جسور عبر العوالم المحطمة، والعالم الحر لن يدخل عام 1961 وهو راضٍ تمامًا. بيد أن الصراع ضد الشيوعية أسفر عن بعض النجاحات القليلة وكذا بعض الخسائر، كما أن السيادة النووية استبدلت بميزان القوى المدمرة. وبمراقبة الأحداث في أفريقيا وأسيا كان هناك شكًا في أن سيادة كل من الثقافة، والحضارة، والثروة والنفوذ الأوروبي قد تنتهي يومًا. أما الاقتصاد البريطاني فقد بلغ حافة الخطر، فتغير الإمبراطورية إلى الكومنولث

(رابطة الشعوب البريطانية) كان مهمة صعبة. والأهم من ذلك أن عدم التأكد من قدرة الاقتصاد القادم وإمكانية بناء وضع سياسي في غرب أوروبا وأخيرًا وليس أخرًا هل كانت بريطانيا من المنظور الأمريكي "مجرد دولة أخرى" أم "حليف من فئة فريدة"؟ وفي النقطة الأخيرة سارع ماكميلان في محاولة تأكيد من خلال الاتصال الشخصي، أن العلاقات الخاصة تنجو. أما خطر الشيوعية تتطلب أعلى درجات التعاون.

بيد أن الكيمياء الشخصية بين الرجلين، حيث أتى ماكميلان من عالم يعرف انجلترا ويعجب بالعقديين الأخيرين بها. وكان العجوز من البلد العريق يقدم النصح للشاب الآتي من البلد الحديث: هو الحال بين اليونان وروما، هكذا كان يفكر ماكميلان. بيد أنه كان يتساءل لو أن السيادة الأوروبية قد انتهت هل كانت كل من الثقافة والحضارة والقوة الأمريكية وصلت لنفس المنحدر؟ وهل كانت أساسيات الولايات المتحدة الأمريكية امتدادًا حقيقيًا لأوروبا أم كانت مختلفة تمامًا ومازالت مجتمع نابض بالحياة؟ وبعيدًا عن القضايا المُلحة الخاصة بجدول أعمال الدولتين كان التساؤل أي من أبناء الجامعتين هارفارد أم أوكسفورد سيأتي بثمارٍ.

غير أن أسلحتهم وضعت أمريكا والاتحاد السوفيتي في التقسيم الخاص بها، وتغير أوضاعهما في السعي للإتقان التقني بين صعودٍ وهبوطٍ في هذه الأعوام حيث ظهرت الصواريخ الباليستية عابرة القارات، والصواريخ المضادة، ورادارات الإنذار المبكر وكذا الأجهزة الأخرى سعيًا لتحقيق ميزات حاسمة. كما كانت هناك اتفاقيات معقدة بشأن العلاقة بين الحرب النووية والحرب التقليدية. ورأي بعض المحللون أن امتلاك أسلحة نووية سيقلل إن لم يحد من مخاطرة الخوض في الحرب ، بينما اختلف آخرون حيث إنه لو قامت حربًا واستخدمت تلك الأسلحة سيكون الأمر بمثابة كارثة. كان هناك مخاوف بشأن الإنتشار النووي فإذا ما أصبحت الأسلحة النووية شارة للوضع قد لا تقوم قوة بعد ذلك في العالم دونها. فالدولة المحمية بحليف يمتلك أسلحة نووية تمر بنوعين من المخاوف إما ألا يحمي هذا الحامي في الوقت المناسب أو أن يسئ الحامي استخدام السلام ويتصرف بتهور. وكان الأمر مطروحًا للجدال خاصة في بريطانيا وفرنسا حيث ظنت

الحكومات أنها بحاجة إلى رادعًا مستقلًا، واعترضت بعض الآراء الشعبية. أما في بريطانيا فقد بدأت أول حملة معارضة للأسلحة النووية وسميت "حملة لنزع السلاح النووي" CND وكان من المتوقع أن يكون عدد القتلى في الشتاء النووي مخيفًا.

كان حس الجنون هو الوضع العالمي، وتساءلت الدول متوسطة الحجم ما إذا كان بإمكانهم تحمل تكاليف الأسلحة النووية والتي قد لا تستخدم أبدًا وأيضًا الحفاظ على قواتها المحلية على نحو كافٍ، وتلك هي الأمور التي أزعجت العلماء أيضًا. هل هم غير مسئولون عن هذا العالم الجديد؟ وأقام بعضهم مؤتمرًا دوليًا عُقد أولًا في كندا في مدينة بوجواش عام 1957. فقد وجدوا أنفسهم في مكان غير مناسب. كما أن التكاليف المادية للفيزيائيين انتهت نهاية عسكرية وسلكت مسلكًا بعيدًا عن المسلك الأكاديمي البحت الذي يستهدف زيادة المعرفة الأكاديمية. لم يرغب العلماء في التبعية، فعالم الأسلحة النووية لا يشمل إلا تلك الدول ذات السعة والتقنية والماليات التي تسمح لها بدخول ذلك العالم إما في الحال أو بعد فترة وجيزة. وغير ذلك لا يوجد مكان أخر للاختباء. وكما ادعى البعض فقد حكم على الجنس البشري حيث أصبح رد الفعل الوحيد المعقول هو أن تصبح المتعة مذهب نتيجة لما سببه اليأس. ولا تزال الكارثة المستقبلية المحتملة "التجارة كالعادة" بمعنى آخر، سعي الدول بالأهداف المحدودة لأغراض بعينها أما الحرب النووية فلن تحدث على أرض الواقع. ومرت عشرات السنين حتى أصبحت القوى العظمى على حافة الهاوية، لكنها تراجعت.

وبدا أن تيار المصالح العالمية في بعض الأحيان يجري في الاتجاه المعاكس للغرب. ووعد كنيدي في خطاب تنصيبه بضمان النجاح وتحقيق الحرية توقف. بيد أن الحقيقة كانت أمريكا بحسب تقديرها تقف على أعتاب علاقة مع "العالم" كما لم تصل دولة أخرى إلى هذه المكانة. ردد وزير الخارجية، دين اتشيسون، أن الخبير الأمريكي في شئون السياسية الخارجية، ماك جورج باندي كان يري الولايات المتحدة الأمريكية بمثابة "قاطرة في رأس البشرية"، أما الباقي من العالم كان مجرد مطبخ متنقل أو عربة حراسة تسحب.

أما بوستن براهمين،الأستاذ بجامعة هارفارد والذي كان مساعد الرئيس لشئون

الأمن القومي للرئيسين كنيدي وجونسون بين عام 1961 وعام 1966، تحدث قائلًا أن الولايات المتحدة ظاهريًا ذات مسئولية تجاه العالم وكيف لها أن تتخلى عنها؟ فأعباء العالم إلى جانب متطلبات أفريقيا وأسيا قد تجعل الحمل ثقيلًا.